قصيدة " الغوثية " للشيخ الشارف بن تكوك

(دراسة لغوية دلالية)

A poem " Al-Ghawthiya " by Sheikh Al-Sharif bin Takouk

(semantic linguistic study)

أ.د. لطروش الشارف *

جامعة عبد الحميدبن باديس – مستغانم (الجزائر)

charef.latroch@univ-mosta.dz

تاريخ الاستلام: 2023 /05/13 ـ تاريخ القبول: 2023/05/26 ـ تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص:

يسعى هذا البحث الموسوم بـ: " قصيدة الغوثية للشيخ الشارف بن تكوك ـ مقاربة لغوية ودلالية " إلى مقاربة لغوية ودلالية لقصيدة الغوثية، وهي قصيدة من التراث الشعري الصوفي غير الفلسفي، لفقيه وشاعر جزائري من القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك بغية فهم معانيها ودلالاتها التاريخية والاجتماعية، ومنها فهم طبيعة الظلم المسلّط على العلماء في أواخر العهد العثماني، من قبل الحكام الأتراك.

الكلمات المفتاحية: الشعر . التصوف . التوسل . اللغة . التراث.

Abstract:

This research, entitled (poem al-Ghawthiya of cheikh Charef Ibn Tekouk - a linguistic and semantic approach), seeks a linguistic and semantic approach to the poetry of al-Ghawthiya, which is a poem of Sufi and no philosophical poetic heritage. of an Algerian jurist and poet of the 19th century, in order to understand its historical and social signs and

connotations, including the injustice inflicted on scholars at the end of the Ottoman era by the Turkish governors.

Keywords: poetry, Sufism, Implore, Language, Inheritance.

1 . التعريف بالشيخ الشارف بن تكوك :

هو الشيخ الشارف بن الجيلالي بن عبد الله بن تكوك، من مواليد 1804م بمنطقة بوقيراط بولاية مستغانم، وبها تعلم وحفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة، ثم (درس على عدة مشائخ في الناحية منهم شيوخ السنوسي نفسه كالشيخ محمد بن قندوز الملقب بقتيل الترك، لأن الباي حسن باي وهران حكم بقتله سنة 1829م بمازونة)[1].

هاجر ابن تكوك الى المغرب الاقصى أثر مقتل شيخه، ومكث في مدينة فاس بضع سنوات لمواصلة تكوينه وتحصيلة العلمي، ثم عاد إلى بلدته، ليؤسس زاوية علمية في بلدية بوقيرات سنة 1859م، وهي الزاوية المعروفة بزاوية ابن تكوك السنوسية.

عانى الشيخ ابن تكوك كثيرا من تضييق السلطة الاستعمارية عليه، وعلى نشاطه التربوي، لأنها لم تكن مطمئنة لجانبه، وسجن مرات عديدة لسنوات، ولم تسلم الزاوية من الغلق[2].

وأما عن أسباب اعتقال السلطات الاستعمارية للشيخ بن تكوك فيذكر بعض المؤرخين أن ذلك راجع لخوفها الشديد من انضمامه إلى ثورة سيدي لزرق بلحاج بنواحي غيليزان، وأولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي[3]، وقد أدت الطريقة السنوسية دورا كبيرا في دعم الشيخ بوعمامة(ت1908م) وتشجيعه في ثورته ضد الاستعمار الفرنسي، كما كانت وراء الكثير من الثوار في مناطق الصحراء[4].

وقد توفي الشيخ بن تكوك رحمه الله العام1892م، ودفن في مسقط رأسه .

قال عنه الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم(ت1965م): (أوّل من أسّس الزاوية التكوكية القطب الغوث سيدي ابن التكوك زبدة زهاد الصوفية، أسّس تلك الزاوية على تقوى من الله ورضوان، وعمّرها بطلبة القرآن العظيم حتى تخرج على يده كثير من الطلبة، وتصدّر للإرشاد فتخرج عليه وسلك على طريقه كثير من المسترشدين، واشتهر بالخير والصلاح وإيجاب الدعوة وقصدته الناس

للأخذ عنه، والتبرك به والشرب من أنهاره التي أجراها الله على يده، واشتهر أمره غربا وشرقا وسلم له معاصروه واشتهر بالزهد).[5]

2 . شعر الشيخ الشارف بن تكوك:

اشتهر من تراث للشيخ الشارف بن تكوك الشعري ثلاث قصائد في التوسل والتضرع إلى المولى سبحانه وتعالى هي :

أ . قصيدة تتألف من أربعة وثلاثين (34) بيتا يائية القافية فيها توسل إلى الله تعالى بالحروف الهجائية وتضرع إليه، يقول في مطلعها :

لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

لا إله إلاّ الله يا ربّ تلطف بيا.

ويقول في بيتها الثالث:

نتوسل لك بالألف والطف بعبدك الضعيف.

أمنعني في يوم الحيف ليلة نعشر داويا

ويختم الشيخ قصيدته بالصلاة والسلام على الرسول الكريم

ويقول في آخر بيت من القصيدة :

فتمت يوم الاثنين بعد السبع والخمسين.

والألف مع المتين من القرون الماضية.

ويقصد في هذا البيت التاريخ الذي أنهي فيه الشيخ نظم قصيدته، وهو سنة 1257 هجرية.

وفي البيت : نتوسل لك بالألف والطف بعبدك الضعيف

توسل بحرف الألف، والتوسل بالحروف عند الشعراء وخاصة المتصوفة مرده إلى قدسيتها، فالحروف تحمل أسماء الله الحسنى وأسماء النبي الكريم، وبها نزل القرآن العظيم.

ولكلّ حرف من الحروف سرّ أو أسرار خاصة به، بل كان عندهم علم تأويل الحروف علما شائعا، ومن أهمّ جوانب الكتابات الصّوفية، وتناوله غيرهم كأهل الحكمة وعلماء اللغة وآخرين، وأوّله كلّ فريق على طريقته الخاصة، فكتب فيه ابن سينا(ت427هـ) رسالة فى الحروف، وكتب فيه ابن عربي

محي الدين الأندلسي(ت638هـ) في الفصل الأول من كتابه الفتوحات المكيّة، وذهب إلى اعتبار أنّ (عالم الحروف أفصح العالم لسانا، وأوضحه بيانا)[6]..

وكتب في تأويل الحروف القاضي ألمعتزلي عبد الجبار الهمذاني(ت415هـ) فى كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن، وكتب فيه الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني(ت561هـ) رسالة (سر الأسرار ومظهر الأنوار) في أسرار التصوف والحروف، وكتب فيه رجب البرسي العراقي(813هـ).

كما كتب في أسرار الحروف علماء الهند واليونان القدامى، والصوفية المسيحيون واليهود.

وحرف الألف عند الصوفية يمثّل الرّقم واحد، ويرمز إلى وحدانيّة الخالق العظيم وتفرّده، وأهميته أعلى من الحروف الأخرى، لكونه أوّل الحروف فهو رمزٌ للإنسان الأوّل آدم، وهو سرّ الكلام ورمز العقل.

ب . قصيدة من ست وسبعين(76) بيتا بائية القافية، فيها توسل إلى الله تعالى بالسور القرآنية وتضرع إليه، يقول في مطلعها:

نستفتح بالبسملة وبفضل الجلالة.

طلبتك يا مولي لقني مع النبي

ثم يقول :

نتوسل لك بالفاتحة فنبغي عندك راحة.

ليلة نمسى في بيحة لم يبق أحد قربي

ويختم الشيخ قصيدته مثل السابقة بالصلاة على الرسول الكريم ويقول في آخر بيت منها ما يلي:

نضمت في الثمانين بعد السبع والسبعين.

والألف مع المتين من حين أهجر النبّي

ويعني بقوله في البيت الأخير أنّه نظم القصيدة سنة 1277هجرية.

ج . قصيدة الغوثية وتتألف من خمسين(50) بيتا.

والجامع بين القصائد الثلاث هو المديح الديني والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى، والتضرع إليه والاستهلال بالتهليل والصلاة على الرسول الكريم.

ففي مطلع القصيدة الأولى دعاء يقول فيه الشيخ (يا رب تلطف بيا)، وفي مطلع الثانية دعاء أيضا يقول فيه(طلبتك يا مولاي لقني مع النبي)، وفي الثالثة(يا رب تب عليا).

3 . قصيدة الغوثية(دراسة لغوية ودلالية) :

هي قصيدة طويلة من الشعر الشعبي العامي القريب من الفصيح، أو ما يعرف بالملحون، ويعني غير الخاضع للقواعد النحوية والصرفية، وهي في رثاء شيخه محمد بن القندوز القدّاري صاحب زاوية تحمدة قرب غيليزان.

قال الجيلالي بن عبد الحكم(ت1965م) عن الشيخ ابن قندوز ما بيانه: (ظهر خبر شاب نشأ في عبادة الله ومحبة الشيخ عبد القادر الجيلالي، وهو الشيخ ابن قندوز قتيل الترك برأس واد منى)[1]، وكانت وفاته سنة 1829م حين هاجم جنود الباي العثماني حسان زاويته بقيادة ابن دهماء العامري، وأخذ الشيخ مقيّدا وقتله بمنطقة واريزان[2]، القريبة من مازونة، وحسب الروايات الشفهية فقد كان زاوية بن قندوز تضم أربع مئة(400) طالب علم من أنحاء مختلفة من البلاد.

وكان الباي حسان آخر بايات وهران، حاكما ظالما يقضي على كل من يشك فيه، حيث وصل قمعه للعلماء إلى درجة الفضاعة، وكان شنيعا في القسوة والتنكيل بهمّ، ويعدم الناس بمجرد وشاية أو إدعاء[7].

والمرجح أن قتل الأتراك للشيخ بن قندوز كان بسبب مساندته للثورات التي ناهضت حكامهم وحكمهم، الذي امتاز بالظلم في أواخر عهدهم بالجزائر، وخاصة مساندته لثورة درقاوة التي اشتعلت قرب معسكر بين سنني 1804م و1816م بقيادة محمد بن الشريف الدرقاوي، مقدم الطريقة الدرقاوية التي تغلغلت في الغرب الجزائري، وأصبحت القوة الرئيسية المعادية للأتراك والمناهضة لنفوذهم، وقد شجعت السكان على التمرّد[8]، والحقيقة أن الإجراءات العقابية التي اتخذتها السلطة ضد العلماء والمرابطين وشيوخ الزوايا على السواء انعكس بالسلب على العلاقة بينهن وبين السلطة العثمانية، وزاد من اتساع الهوة وتعميق الفجوة بين الطرفين في ظل تنامي نفوذ العلماء والمرابطين والزوايا، وخاصة منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر[9].

وقتل الأتراك علماء آخرين بارزين منهم الشيخ عبد القادر بن عسلة المعسكري مع اثنين وعشرين(22) من طلبته ذبحا، وكان الشيخ معاصرا لابن قندوز، وقتلوا الشيخ عبد الله بن حواء الغريسي.

وكان الأديب العالم سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي(ت1088هـ) صاحب منظومة "العقيقة" المشهورة وهي قصيدة لامية في مدح النبي صلى الله عليه وسلّم، قد أنشأ قصيدة أخرى فريدة في مظالم أتراك تلمسان ومساعديهم من العلماء حيث قال في مطلعها:

أمن قادر بالله يحمي تلمسانا.

.فإن بها من قوم ياجوج إخوانا.

بنى السد ذو القرنين للناس رحمة

إلى أن قال:

فما دب فوق الأرض كالترك مجرم.

ولا ولدت حواء كالترك إنسانا

وهذا النوع من القصائد مشهور في الأدب العربي الفصيح والشعبي، وفيه من الشعراء من بستغيث بالرسول أو بالصحابة أو بالصالحين أو بسور القرآن الكريم، ومنهم من يجمع بين البعض، أو بين الكلّ، ويختم القصيدة بذكر الضيم(الحقرة) الذي يشتكي منه المستغيث، والدعاء على الظالم والتضرع إلى الله للانتقام منه أو لتفريج الكرب.

وفي زاوية ابن تكوك السنوسية كانت تنشد قصيدة الغوثية في المناسبات الدينية، وأحيانا دون مناسبة وللتذكير والاعتبار، و(أصبحت هذه الغوثية من المصادر الأساسية في دراسة الفترة الأخيرة من العهد العثماني، التي كثرت فيها الفتن وعمت المظالم) [10].

في القسم الأول من الغوثية توسل بسور القرآن الكريم وهي مائة وأربعة عشر سورة، ومطلع القصيدة يبدأ بقوله:

لا إله الله محمد رسول الله.

لا إله إلا الله يا رب تب عليا

نبدا قولي يا حنّان بفاتحة القرآن.

بالبكر وبالعمران نجّني من الدنيا

ففي البيت الأول نجد الشاعر يبدأ بالتهليل والشهادة، وبالنداء وغرضه الاستغاثة، وفيه أمر (تب علي)، والأمر غرضه الدعاء والتضرع إلى الله سيحانه.

وفي البيت الثاني توسل إلى الله بسور القرآن الثلاثة الأولى الفاتحة والبقرة التي سماها البكر وبسورة آل عمران، ووصف المولى بصفة الحنان مستعملا صيغة المبالغة على وزن فعّال (الحنّان)، وطلب منه النجاة.

وفي البيت الثامن من القصيدة يقول:

بإبراهيم والحجر وبالعلم المشهور.

فتونسني في قبري يكون الضو عليا

وفي هذا البيت يقصد بإبراهيم سورة إبراهيم وبالحجر سورة الحجر،

فتونسني تعني فتؤنسني أي أن سور القرآنّ والعلم مؤنسان له في قبره، والضو يقصد به الضوء أو النور، وفي ذلك إشارة إلى الحديث النبوي المشهور الذي يفيد بأن القرآن نور لمن يحفظه، وأنيس له في وحدته في قبره.

ويبدأ القسم الثاني من قصيدة الغوثية عند البيت السادس والأربعين الذي يقول فيه:

ارحم شيخي بلقندوز مريد الشيخ المعزوز.

عبد القادر به نفوز عند رجال الصوفيا

في هذا البيت أمر غرضه الدعاء (ارحم)، وهو الدعاء بالرحمة لشيخه بلقندوز، السائر على نهج عبد القادر يقصد الصوفي الشهير عبد القادر الجيلاني(ت561هـ).

ويواصل الشاعر سرد مناقب شيخه قائلا:

بلقندوز المزهد في وسط الطلبة عابد

لابد في الذكر يمجد ويخدم ربّي بالنيّة

المزهد يقصد بها الزاهد، لابد يعني معتكف،

ثم يدعو على الذي أمر بتعذيبه وقتله قائلا

ياربّ عذب حسان فركت بيت الله تعيان.

الطلبة قعدت تتهان وافترقوا في بكريا

والمعنى أنّه يدعو الله أن بعذب حسان باي وهران، و(فركت) كلمة عامية تعني فرّق، والطلبة هم طلبة القرآن الكريم، تتهان من الإهانة، وبكريا مكان الاعتداء على الطلبة.

ثم يبيّن في الأبيات الموالية، تاريخ الواقعة المؤلمة وفرحة الطغاة الذين قتلوا شيخه قائلا:

في شهر الله صفر دارت به العساكر.

بالثلاثا بعد الفجر ولى في يدين الخزيا

في هذا البيت يؤرخ الشيخ ابن تكوك لتوقيت الاعتداء على شيخه، فس شهر صفر، وعبارة ولى في يدين الخزيا أي أصبح أو قبض عليه الخزيا وهم عساكر الباي التركي، يدين الخزيا: يدين معناها أيدي والخزيا من الخزي، جمع خزيّ وهم الظالمون الذين خزاهم الله.

عام الخمسة والربعين توفى ليلة الإثنين.

فرحوا ليه الطائغين الغابطين في الدنيا.

ويعود إلى وصف المجرمين بالنعوت السيئة، ويعدد الخصال الحميدة لشيخه، ويدعو الله أن يرضى عنه شيخه ويرضى عنه والداه وجميع الأولياء.

وينهي القصيدة بالدعاء والصلاة والسلام على الرسول الكريم قائلا:

سألتك يا جليل ورثني بعلم اخليل.

نكون كبحر النيل طيب ما فيه إذايا

وفي هذا البيت يدعو الشيخ ربّه أن يرزقه ويورثه علم الشيخ خليل، وهو علم الفقه، والشيخ هو خليل بن إسحاق الجندي المالكي المصري(ت767هـ)، صاحب كتاب مختصر خليل في الفقه، وهو المصنف المرجعي الأساسي في الفقه في المغرب العربي منذ قرون بعيدة إلى اليوم.

وفي قوله : نكون كبحر النيل طيب ما فيه إذايا، بحر النيل يقصد به نهر النيل في مصر، يسأل الله أن يكون كالماء الصافي، طيب القلب والسريرة نافعا للناس، لا يؤذي غيره.

ثم يقول :

طلبتك يا وهاب فهمني من كلّ كتاب.

عبد الله بن الخطاب لا تفرطشي فيا.

نختم هذا الأنظام بالصلاة والسلام.

على طه خير الأنام ولد حليمة السعديا..

وبعد الدعاء والتضرع والتوسّل إلى الله سبحانه وتعالى، عمد الشيخ إلى الاستغاثة بجده الوليّ الصالح عبد الله بن الخطاب(عاش في القرن الهجري، وهو دفين مدينة مستغانم).

ومن المعلوم أن التوسّل والاستغاثة بالصالحين والأولياء الأحياء والأموات منهم، جائز عند الصوفية. وفي نهاية القصيدة لم يذكر تاريخ نظمها لأن الأمر واضح، والتاريخ معلوم فقد كتبها إثر مقتل شيخه، حيث ذكر تاريخ العدوان على شيخه في زاويته، وبأمر من باي وهران حسان، في البيتين الرابع والخمسين والخامس والخمسين.

4 ـ الخاتمة :

الملاحظ على قصيدة الغوثية أنها جاءت بسيطة في لغتها، خالية من التعقيد اللفظي، يفهمها العام والخاص، لكنّها عميقة المعاني، كثيرة الدلالات والأنساق، لخّصت الوضع السياسي والاجتماعي والديني في أواخر العهد العثماني، وبيّنت بجلاء رفض رجال التصوف وأعلامهم للظلم، وأومأت إلى أن هناك تصوفا إيجابيا واعيا، وأنّه ليس حركة سلبية منقطعة عن هموم الناس وتطلعاتهم.

5 ـ الهوامش:

[1] . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي،ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1998/1م، ص267

[2] . ينظر المرجع نفسه، ص268.

[3] . ينظر أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط/2000م، ص251

[4] . ينظر صالح مؤيد العقبي . الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، دار البراق، بيروت ، ط/2002م، ص84

[5] . الجيلالي بن عبد الحكم .كتاب المرآة الجليّة في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، مطبعة ابن خلدون، تونس، ط/1953م، ص293

[6] . ابن عربي محيي الدين الأندلسي . الفتوحات المكية، ج17 ، تح: عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1998م، ص861.

[1] . الجيلالي بن عبد الحكم .كتاب المرآة الجليّة في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، ص274

[2] . ينظر محمد مفلاح . أعلام من منطقة غيليزان، طبع دار هومة، الجزائر،ط.د.تا، ص23.

[7] . ينظر رشيدة شدري معمر . العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات، مذكرة ماجيستير(مخطوط)، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 2006/2005، ص166

[8] . ينظر صالح فركوس . تاريخ الجزائر، دار العلو للنشر والتوزيع، عنابة، ط/2005م، ص135

[9] . ينظر قدور بوجلال . ثورة ابن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج4، سبتمبر2021م، جامعة ابن خلدون تيارت، ص598.

[10] . صالح فركوس . تاريخ الجزائر ، ص22

6 ـ المصادر والمراجع :

1 . ابن عربي محيي الدين الأندلسي . الفتوحات المكية، ج17، تحقيق عثمان يحي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط/ 1998م.

2 . أبو القاسم سعد الله . الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.

3 . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي،ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1998/1م.

4 . الجيلالي بن عبد الحكم . المرآة الجليّة في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية، مطبعة ابن خلدون، تونس، ط/1953م.

5 . شدري معمر . العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات، مذكرة ماجستير(مخطوط)، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005م.

6 . صالح فركوس . تاريخ الجزائر، دار العلو للنشر والتوزيع، عنابة، ط/2005م،

7 . صالح مؤيد العقبي . الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، دار البراق، بيروت ، ط/2002م.

8 ـ قدور بوجلال . ثورة ابن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج4، جامعة ابن خلدون تيارت، عدد سبتمبر2021م.

9 . محمد مفلاح . أعلام من منطقة غيليزان، طبع دار هومة، الجزائر، د.ت.